مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) أيار : سنة ١٩٢٩ م الموافق ذي القعدة وذي الحجة سنة ١٣٤٧ هـ

الاندلس(١)

« عبرة وذكرى »

ما ذكرت الاندلس مرة الا امتلكت نفسي بهجة وفجعة ، ما تزالان بي تتجاذبان دمعة من عيني حتى أرسلها ، وانا بعد لا أدري أجذلاً أرسلتها ام جزعا .

وكيف لا أجتذل وذكرى الاندلس تعود بصاحبها الى السنة الثانية والتسعين للهجرة ، اذ نحن والامر امرنا ، واذا الوليد ، وقد ربض في هذه العاصمة : دمشق ، ربضة الأسد ، وانتشرت ولاته في ما فتحه العرب من البلاد شرقاً وغربا ، فكان منهم على إفريقية(٢) موسى بن نُصَير ، وتأبى على موسى همته ان يقف دون الفتح بحر ، فيغزي مولاه طريفاً اسبانيا فيلم بها الماماً لينا لا يتعدى مايعرف الى اليوم بمدينة طريف اوطريفة كما يقول الاسبان . فيبعث موسى ثانية جيشاً اكبر ، يعقد لواءه لمولاه طارق بن زياد ، فيكون طارق فوق ظن مولاه به ، يواقع الجزيرة ويظهر على صاحبها ، ويهزم جيشه الضخم ، ويتتبع فلوله حتى يقضي عليها ويتوغل في البلاد غازياً فاتحا ، فتعنو له مستسلمة صاغرة ، ويهتاج هذا الفتح طماعية موسى فيأمر طارقاً بالوقوف ، حيث انتهى به الفتوح ،

(١) محاضرة الاستاذ عارف بك النكدي القاها في بهو المجمع العلمي في شهري آذار ونيسان سنة ١٩٢٩ .

(٢) إفريقية لفظ أطلقه العرب على المغرب الاقصى عامة وتونس منه خاصة لا كما يطلق اليوم على القارة بجملتها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و يجتاز بنفسه البحر في جيش لجب ، فيمضي في الفتح ، وقد جعل هدفه القسطنطينية يقطع اليها البلاد فاتحاً حتى يعود الى المشرق عن طريقها .

وتنتهي الولاية في هذه الجزيرة الى عبدالرحمن الغافقي فيجتاز جبال البرانة او الثنايا ويصل الى تور[1] وهي في قلب مملكة شارلمان .

ايلام العربي مع هذه الذكرى ، ان هو اخذته عظمة الماضي فنسي لمحة من اللمحات انه ابن هذه الامة العربية المستضعفة اليوم لكل جيل ، المستعمرة في كل قطر ، فذهب به التيه بهذا المجد الغابر ، حتى خيل اليه انه يسير في جيش الفتح ، يسمع قعقعة السيوف ، وجرجرة الرماح ، وعجعجة المجاهدين .

* * *

ثم كيف لاينقطع القلب حزازة ، متى رجعت الذكرى الى ما كان من فشل هذه الغزوة ، وكيف ملأ قومنا ايديهم بالغنائم فشغلتهم عن الحرب ، وعن كل تفكير الا فيها ، فأصيب صاحبنا الغافقي اصابة كانت فيها روحه .

ثم كيف تفرق العرب في الاندلس نفسها وتنازعوا الرئاسة ، فانشق الاخ عن اخيه ، وثار الابن على أبيه ، ففشلوا وذهبت ريحهم . استسلموا لعدوهم فراراً من الموت ، فوقعوا في العار وفي الموت .

ماترك الاسبانيول حيلة في الظلم والتفظيع الا اوقعها بهم . حُرِّقوا ، وغُرِّقوا ، وبقرت بطونهم ، وسملت عيونهم ، وقطعت أيديهم وأرجلهم ، واستُعبدوا وأُذلوا ودجنوا . ثم انهم أزعجوا عن ديارهم — الا من بدل دينه تبديلاً صحيحاً — فخرجو خروج الغريب عن البلد الغريب .

أذكر هذا فأحس في قلبي وقع هذه المظالم ، وأسمع باذني ابا البقاء يقول :

دهى الجزيرة امر لا عزاء له ... هوى له أُحد وانهد ثهلان

اصابها العين في الاسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... واين شاطبة ام اين جيان

(١) عاصمة مقاطعة تورنيا على ٢٣٦ كيلو متراً الى الجنوب الغربي من باريس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واين قُرطُبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن اركان البلاد فما ... عسى البقاء اذا لم تبق اركان

* * *

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... احال حالهم جور وطغيان
بالامس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الضد عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل الوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الامر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ ... ان كان في القلب اسلام وايمان

الائمي انت بعد ، اذا انا لم ادر ادمعة الجزل ارسلت ام دفعة الجزع ؟

بلى لقد صدق ابوالبقاء ، فما لمصاب العرب بالاندلس عزاء ، ولا لجرحهم فيها شفاء ، وانى يكون ذلك والخطب منقطع النظير ، خص العرب وعم الانسانية جمعاء .

واذا كان العرب قد تركوا التفجع والتوجع فما فعلوا ذلك لبعد الصقع ، والعربي الحق يرى في كل بلد عربي موطناً له ، ولالبعد العهد ، وارب مئة سنة ليست في التاريخ شيأ ، فتنسى بلداً كالاندلس عمره اجدادنا ثمانية قرون كاملة فأنشأوا فيه حضارة عز مثلها ، فكانت احدى مفاخر العالم على وجه الدهر .

كلا لا هو بعد الشقة ، ولا هو بعد العهد ، انسى العرب ذلك العهد ، ولكنها المصائب تترى آخذاً بعضها برقاب بعض الهت كل قطر عن غير نفسه . فأي بلد عربي وليس فيه جراحة ما تأتلي تمض احشاءه ، وتنتقص اجزاءه ، حتى شغلته عن البكاء على امسه بالبكاء على نفسه . (يبكي ومن شر السلاح الادمع)

ولسنا من المبالغة في شيء ان نحن قلنا ان حضارة العرب في الاندلس كانت احدى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مفاخر العالم وان مصاب العرب بها عم الانسانية جمعاء .

فمن كان قد علق بذهنه شيء مما تمليه ارساليات الغرب في تصغير شأننا ، وتهوين امرنا فداخله شك في كلمتنا ، فليرجع الى ماوصف به المؤرخ الافرنسي (لافاله Lavallée) مدنية الاسلام باسبانية وما اتى به من بيان مزايا العرب هناك في الصناعة والزراعة والغراس والبناء ، ووصف قصر اشبيلية ، وحمراء غرناطة ، وجامع قرطبة ، وخصائص الهندسة العربية ، والزخرف الشرقي ، واسلحة الاندلسيين . وقد قرر ان العرب هم اول من استعمل المدافع النارية في اوربا ، وانهم هم الذين هدوا الاوربيين الى صناعة البارود ، وعرفوهم بصناعة أخرى أشد تأثيراً في الاجتماع الانساني وهي عمل الورق .

قال : وانهم في جميع الفنون فاقوا المسيحيين وبلغوا الدرجة القصوى من الحضارة ، حينما كان أقرانهم ملفوفين في حنادس الجهالة والبربرية ، فكانوا فوقهم في العلم ، ومثلهم بالبأس ، وكانوا حكماء في المجالس ، أشداء في المآزق » [1] .

ثم ألق بسمعك الى مايقوله (كولود فرّار Claude Farrère) عن هذه الحضارة ، في مقدمة العباسة اخت الرشيد ننقله كلمة كلمة :

« أناخت على الانسانية في السنة الثانية والثلاثين بعد السبعمائة للميلاد كارثة لعلها أسوء ما شهدته القرون الوسطى ، تخبّط من جرائها العالم الغربي سبعة قرون اوثمانية قرون بل تزيد ، في لجة من الهمجية ، بدأت (النهضة) تقشع ظلماتها ، فعادت حركة (الاصلاح) تزيد فيها من جديد .

هـذه الكارثة التي أريد ان احتقر ذكراها ، هي ذلك النصر الهائل الذي احرزته غير بعيد عن « بواتيا » جماعات « الهركاس » المتوحشين من مقاتلة « الفرنك » يقودها شارل مارتال الكرلونجياني على فِرق من العرب والبربر فشلت لان الخليفة عبدالرحمن ؟! أخطا فلم يحشدها اكثر مما كانت عدداً .

في هذا اليوم المشؤوم تقهقرت الحضارة ثماني مائة سنة . وحسب الانسان ان يكون قد تنزه في جنائن الاندلس ، او خطر بين أطلال لاتزال بعد تبهر الابصار ، من عواصم

(١) خلاصة تاريخ الاندلس للامير شكيب أرسلان ص ٣٦٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السحر والخيال التي كانت عليهما اشبيلية وغرناطة وطُليطُلة ، ليتراءى له في شيء من الدوار المعجب ما كان يمكن ان تصل اليه فرنسا ، لو ان الاسلام الصناعي الحكيم الرصين المتسامح — اذ الاسلام هو كل هذا — استطاع ان ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا تجد لها اسماً احتاجت بعد ذلك الغول القديمة : استعبدها باديء الامر (الاوستراز يان Anstrasiens) اولئك السلابون الضواري ، ثم اقتطع القرصان النورماند (Normandes) اول قسم منها . ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في بحور من الدماء والدموع ، واخلتها الحروب الصليبية من السكان ، وملأتها الحروب الخارجية والأهلية جثثاً ، كان ذلك يوم كان العالم الاسلامي يتمتع بلذة السلم من نهر وادي الكبير الى نهر الهندوس ، في كنف الخلافات الاسلامية الاربع : الأموية والعباسية والسلجوقية والعثمانية .

واذا كان (فرّار) ختم مقالته ذاهباً مذهب الخيال والاغراق ، في السلم الذي وصفه في ظل الخلافة ، فلقد كان مؤرخاً حقاً وهو يتغنى بحضارة الاندلس ، وكان مخلصاً صادقاً وهو ينعي على قومه ان يفخروا بيوم (بوانيا) اليوم الذي تراجعت فيه جيوش العرب مندحرة ، فصدمت الحضارة العربية صدمة لم يكن من مصلحة العالم المتمدن ان تكون .

بل مالنا ولما قاله (لافاله) المؤرخ الفرنسي الخطير ، وما كتبه (فرّار) الكاتب الفرنسي الكبير ، ولنعد الى ما كان من الاسبان انفسهم في الفترة الأخيرة .

فالاسبان وهم الذين لا يفتأون يحتفلون باليوم الثاني من شهر كانون الثاني ، وهو اليوم الذي في مثله من سنة ١٤٩٢ خرج ابو عبدالله آخر ملوك بني الأحمر من عاصمة الاندلس ، ذلك الاحتفال الفخم ، فتقرع فيه أجراس كنيسة الحمراء اربعاً وعشرين ساعة قرعاً متواصلاً .

هؤلاء الاسبان انفسهم قام منهم نفر من علماء المستشرقين ، تحللوا من قيود التعصب ، فنزعوا ما ألقاه على اعينهم من غشاوة ، فاذا هم يبصرون تلك الحضارة العربية الفتانة ، وما فيها من عظمة وفن وجلال ، فتشجبهم صبابة منها ، ابقت عليها نزعات الجهل القديم ، والتعصب الذميم ، فاذا بها الى اليوم مفخرة اسبانيا الكبرى ، ومورد من موارد الرزق فيها .

وبينما الاسبانيول يحتفلون بذكرى جلاء العرب عن بلادهم ، شفاءً لنزعة التدين ، وقضاءً لحق الوطنية ، ينهض هذا النفر فيحتفل بذكرى قيام الخلافة الأموية بالاندلس تقديراً للجهود الانسانية ، وإعجاباً بالحضارة العربية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أليس حقيقاً ان نتحدث اليكم على ذكر هذه الحفلة يقوم بها اعداء تاريخنا بالامس ، واصدقاء حضارتنا اليوم ؟ بكلمة عن هذا البلد الطيب تكون كالعبرة والذكرى ليس الا ٠ اقول عبرةً وذكرى ، ذلك اني لا اطمع ان اقف فيكم موقف المؤرخ ، والكلام عن الاندلس حديثه وقديمه ، عربيه وغربيه ، مِلءُ الكتب وملءُ دورها ، فهل من سبيل الى غير مكرر ملول ؟ واذا كان من حاجة لمزيد في ناحية من نواحي تاريخ هذا القطر ، او في ما كان فيه من علم وادب ، وصناعة وزراعة ، وسائر مقومات العمران ، او كان في رجال هذا القطر ودولاته وسياسته ما تقتضي غوامضه شيأً من النور يكشف عن اسراره ، فهذا ما لا تتسع له المحاضرة والمحاضرتان ومن حق رجال التاريخ ان يفردوا لكل فرع من هذه الفروع التي اشرنا اليها كتاباً قائماً برأسه ، بل في رجال الاندلس من يستحق ان يؤلف فيه الكتاب المستقل ٠

اما انا ، فاكتفي بالعبرة ابسط فيها دخولنا الاندلس وخروجنا منه ، وقد توافقت فيهما الاسباب ، واتحدت العلل في القبيلين العرب والاسبان ، و بالذكرى أعيد عليكم فيها لمحة موجزة عن هذا التاريخ تكون كالفذلكة لهذه القرون الثمانية التي عمرنا فيها هذا القطر ٠ نسرد فيها الأحداث الخطيرة ، ونسلسل ادوار الحكم ، بما يمكن حفظه ٠

ولعل الموضوع يكون أقرب تناولاً ان نحن قسمناه الى خمسة أدوار ، نمهد له بمجمل تاريخي جغرافي عن الاندلس العربية وتاريخها القديم ، اما الادوار الخمسة فهي :

١ — الفتح واسبابه ٠
٢ — الحكم الأموي ٠
٣ — ملوك الطوائف ٠
٤ — حكم امراء المغرب المرابطين والموحدين ٠
٥ — الجلاء واثر العرب في الاندلس وعاداتهم واخلاقهم ٠

لمحة جغرافية : الاندلس او ڤندالوسيا اسم مقاطعة من شبه جزيرة « الپيرانه » سميت فندالوسيا او فندالوشيا باسم الفندال (Vandales) وهي امة نزلت شبه هذه الجزيرة في اوائل القرن الخامس ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقديماً عرفت هذه المقاطعة بـ (بتيكيا) (Bétique) باسم نهر بتيس (Bétis) الذي يرويها وهو وادي الكبير اليوم ·

مساحتها وحدودها : طول هذه الجزيرة من رأس بنياس في استوريا (اشتوريش) شمالاً الى رأس طريف في بوغاز جبل طارق جنوباً ٥٤٠ ميلاً ومعظم عرضها من رأس كروس في قطلونية شرقاً الى قرب رأس فينستر في جليقية غرباً نحو ٦٣٠ ميلاً ·

و يحدها من الشمال سلسلة جبال البرانس الفاصلة بينها وبين فرنسا وهي بمثابة برزخ عرضه ٢٤٠ ميلاً و بحر بسكي المسمى ببحر فرنسا ومن الغرب الاوقيانوس الاتلانتيكي ومن الشرق والجنوب البحر المتوسط وبوغاز جبل طارق الفاصل بينها وبين افريقية ·

وتقدر مساحة هذه البلاد وما يتبعها من جزر متممة لها بنحو ستمائة الف كيلو متر مربع (٦٠٠٠٠٠) منها اليوم لاسبانيا (٥٠٤٥٢٠) كيلومتراً و(٩٢١٥٧) للبرتغال ·

ويقول جغرافيونا ان مسيرة دَوْرها اكثر من ثلاثة اشهر ليس فيها ما يتصل بالبر الى مقدار يومين ·

معادنها : وارضها غنية بالمعادن، منها : الرصاص ، والزئبق ، والتنك ، والحديد ، والفضة ، والنحاس ، والملح ، والفحم ، والرخام ، وحجر الدم · وقديماً استخرجوا منها الذهب ·

هواؤها : يختلف باختلاف اقاليمها فمنه الحار والمعتدل والبارد ·

لمحة تاريخية : دخل الفينيقيون هذا القطر سنة ١٠٠٠ قبل المسيح فأنشأوا في سواحلها مستعمرات عديدة منها : طرطوشة (Tartessus) وقادس · ثم تبعهم اليونان فبنوا ايضاً عدة مستعمرات منها : امبورية على ساحل قطلونية، وساغونتم (مربيدرو) في بلنسية · وظل داخل البلاد مجهولاً لم يعرفه الرومان الا في الحرب البونيقية الثانية ·

واطلق اليونان على الساحل الشرقي اسم ايبيريا ، وسموا القسم الغربي من شبه الجزيرة ترتشيش واوسطها كلتيكا ثم توسعوا بعد ذلك فأطلقوا لفظ ايبيريا على البلاد كلها ثم سماها الرومان اسبانيا [1]

(١) قيل اخذ هذا الاسم من لفظة (شافان) السامية ومعناها الارنب لكثرة ماوجد الفينيقيون منه في هذه البلاد · وقيل من لفظة (ازبانيا) البسكية ومعناها شاطئ ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن امم اسبانيا القديمة الاستوريون (Asturiens) كانت مواطنهم في استوريا س (Asturie) والقسم الشمالي من مملكة لاون، وكانت قاعدة بلادهم (استور يكااوغسطا) وهم آخر من خضع للرومان .

اما اول من عرف من سكان هذه الجزيرة فهم القلطبريون (Celtiberiens) وهم خليط من القلط (Celtes) والابير (Ybéres) ثم أنشأ الفينيقيون واليونان على ما قدمنا مستعمرات واسواقاً تجارية (وكالات تجارية) على شواطيء هذه الجزيرة . وفي القرن الخامس امتدت اليها سيادة قرطاجة (Carthage) الى ان تغلب عليها الرومان وظلوا اصحاب السلطان فيها الى ان غزاهم الهيلانيون (Alains) والسواف (Suaves) والفندال (Vandales) سنة ٤٠٩ وفي ذلك العصر ايضاً انشأ فيها القيز يقوط (Wisigoths) دولة عظيمة ما زالت قائمة الى ان قضى عليها العرب يوم استولوا على الاندلس في تموز من سنة ٧١١ بعد معركة شريش او شرش (كساريس Xérès) .

ملك العرب : دخل العرب اسبانيا فأطلقوا عليها اسم الاندلس ، اذ كانت هذه المقاطعة اول ما استولوا عليه من شبه هذه الجزيرة ، وغلبوا عليها اسم الجزيرة على اتصالها بالبر — كما سميت شبه جزيرة العرب ايضاً جزيرة .

وبسط العرب ملكهم على هذه الجزيرة جزرها و يابستها ، ساحلها وداخلها ، شرقها وغربها ، الا جزءاً يسيراً من الغرب الشمالي قرب خليج غاسقونيا في ولايات جبلية يسميها الاسبان استوريا س ، وسماها العرب اشتورش والصخرة .

عدد السكان : ليس عندنا ما نعول عليه في عدد سكان الاندلس ايام العرب فقد أوصله بعضهم الى العشرين مليوناً وهذا عدد نشك في صحته وان قيل « انه بلغ من عمران الاندلس ان كان على وادي الكبير اربعة عشر الف قرية حتى كان المسافر لا يكاد ينقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع والصحاري معدومة » .

الفتح : قلنا : ان موسى بن نصير عامل الوليد بن عبدالملك على افريقية ، اغزى مولاه طريفاً الاندلس ، فسار في اربعة مراكب فيها اربعمائة رجل ومائة فارس فنزل في موضع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سمي به [١] على المضيق الذي عرف بعد ذلك بمضيق جبل طارق فأغار وأصاب شيئاً ثم رجع وذلك سنة ٩١ هـ .

وفي سنة الـ ٩٢ بعث موسى مولاه طارقاً في سبعة آلاف [٢] جلهم من البربر والموالي ليس فيهم عرب الا القليل . فنزل طارق جبلاً منيعاً على شاطئ البحر يعرف الى اليوم به . وجعلت السفن تختلف بالرجال والخيل حتى توافى اليه جميع اصحابه .

قيل وكان في جيش طارق بوليانوس احد رجالات اسبانيا [٣] في جماعة من اهل

---

(١) طريف او طريفة ثغر اسباني حصين على مضيق جبل طارق سكانه اليوم ١٢٥٠٠ فيه حصن منيع بناه العرب تكتنفه الاسوار المنيعة والابراج . وفي البلدة داخل السور ثغر مغربي اتخذوه الآن سجناً . وظلت طريف في حوزة العرب الى سنة ٦٩١ — ١٢٩٢ . وفي ايام العرب كانت السفن التي تجتاز مضيق جبل طارق تقف في طريف وتدفع رسماً ولهذا زعم بعض كتبة الفرنجة ان لفظة (Tarif) بمعنى التعرفة بالفرنسية والانكليزية وما اشبههما في اللغات الاوربية مأخوذ من لفظة طريف لتقاضي رسم السفن فيها . وكانت طريف من اعظم ثغور العرب شأناً في تلك الانحاء بل كانت أم تلك الثغور وربيئة لمن تولاها على بحر الزرقاء اه (لاروس ودائرة المعارف العربية) .

(٢) في دائرة المعارف العربية : ان طارقاً جاز في نحو ثلاثمائة فارس من العرب احتشد معهم من البربر نحو عشرة آلاف صيرهما عسكرين احدهما على نفسه ؟ ونزل به جبل الفتح وهو جبل طارق والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل به بمكان مدينة طريف ثم أداروا الاسوار على انفسهم للتحصن و بلغ الخبر رودريك فنهض اليهم بجيش يبلغ الاربعين الفاً فلقيهم في فحص شريش فهزمه طارق وطريف .

(٣) في صبح الاعشى الجزء الـ ٥ ص ٢٤٢ وبعض الكتب العربية : كان من سير الأعاجم ان يبعث اكابرهم باولادهم ذكوراً كانوا او أناثاً الى بلاط الملك ، ليتأدبوا بادبه ، و ينالوا من كرامته ، حتى اذا بلغوا أنكح بعضهم بعضاً استئلافاً لآبائهم . وكان للذريق عامل على سبتة من بر العُدوة يسمى يُليان ، وله ابنة فائقة الجمال ، فوجه بها الى دار لذريق على عادتهم في ذلك فوقع نظر لذريق عليها فأعجبته ، فاستكرهها على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البلد يدلهم على العورات ويتجسس لهم الاخبار .

وبلغ الامر رودر يك (لذريق اورزريق) ملك طُليطُلة فجمع جموعه والتقى بطارق في موضع يقال له البحيرة ، فانهزم رودر يك . وسار طارق متبعاً لاصحابه الى مضيق الجزيرة فمدينة إستجة فلقيه اهلها ومعهم من المنهزمين خلق كثير ، فقاتلوه قتالاً شديداً ثم انهزموا . ونزل طارق على عين بينها وبين مدينة استجة اربعة اميال فسميت عين طارق ، ومن استجة فرق جيوشه على مدن الاندلس ، فوجه فرقة الى قرطبة ، وأخرى الى ر ية ، وثالثة الى غرناطة ، وسار هو في عظم الجيش يريد طليطلة ففتحت كلها وكذلك تدمير . وخلى طارق رجالاً من اصحابه وسلك الى وادي الحجارة واستقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فج طارق . فكان فتح الاندلس يوم الاحد في الخامس من شوال سنة اثنتين وتسعين .

وكتب طارق الى موسى بالفتح والغنائم ، فحركته الغيرة وكتب الى طارق يأمره ان لا يتجاوز مكانه حتى يصل اليه .

استخلف موسى على القيروان — عاصمة ولايته المغربية — ولده عبدالله ، ونهض سنة ثلاث وتسعين ومعه حبيب بن منده الفهري في جيش غفير من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر ، قيل انه ١٨ الفاً فأتم موسى الفتح متوغلاً الى برشلونة في المشرق واربونة في الجوف ، وصنم قادس في الغرب ، ثم أجمع ان يأتي الى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز الى الشام ويخوض مابينهما من أمم الأعاجم مجاهداً الى ان يلحق بدمشق دار الخلافة .

وبلغ ذلك الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى ان ما هم به موسى

نفسها ، فاحتالت حتى أعلمت اباها بذلك سراً . فشق ذلك عليه وحلف ليزيلن سلطان لذربق ، ثم تلطف حتى اقتلع بنيه من بيت لذريق ، ثم لم يلبث يليان ان كتب الى موسى بن نصير امير افريقية من جهة الوليد بن عبدالملك يحرضه على غزو الاندلس ويحثه على ذلك ووصف له حسنها وفوائدها ، مادعاه الى ذلك وهوّن عليه امر فتحها ، فتوثق منه موسى ودعا مولى له كان على مقدّمانه يقال له (طارق بن زياد) فعقد له وبعثه اليها في سبعة آلاف ، وهيأ له بليان المراكب ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غرر بالمسلمين ، فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وامرّ الى سفيره ان يرجع بالمسلمين ان لم يرجع موسى عن عزمه ، فقفل لذلك موسى عن الاندلس وولى عليها ابنه عبد العزيز وانزله بمدينة قرطبة واتى القيروان سنة ٩٥ وارتحل الى الشرق سنة ٩٦ بما كان معه من الغنائم والذخائر والاموال ، وقدم على سليمان بن عبد الملك فسخطه ونكبه ....

اصبحت الجزيرة كلها في يد العرب الا ولايات جبلية أهمها اشتوريش وقنطبرية ونوارة التي لقبها العرب بالصخرة فانها دافعت عن استقلالها ولم يهم العرب امرها فخلوا عنها . فجعلت بلاجيوس ملكاً عليها ثم الفونس الاول الكاثوليكي من بعده فكانت هذه الصخرة الاساس الذي بنى الاسبان عليه ملكهم القومي اول فأول .

لقد أجملنا حكاية هذا الفتح فبقي علينا ان نذكر علله واسبابه ، وفي رأينا انها تنحصر في عوامل اربعة :

(١) العوامل الطبيعية . (٢) العوامل السياسية . (٣) العوامل الاقتصادية . (٤) العوامل الدينية . ونحن نجملون هذه العوامل من وجهتيها : الايجابية والسلبية .

العوامل الطبيعية : مجاورة الجزيرة الاندلسية لملك العرب في الغرب فلقد كان بين العدوتين مضيق لا يتجاوز عرضه في بعض المواضع اثني عشر ميلاً (نحو ١٢ كيلومتراً) بحيث يرى اهل الجانبين بعضهم بعضاً ويتبينون زروعهم وبيادرهم .

انكشاف البلاد للعرب وسهولة اجتيازها .

هذا ما سهل الفتح و يسر نقل المقاتلة من العدوة الى الجزيرة .

العوامل السياسية : توحيد امر العرب ، وتنظيم القيادة ، واعتيادهم على الجهاد ، وعدل امرائهم ، واشتهارهم بذلك . ومن الجهة الاخرى تضعضع حالة الاسبان لانقسامهم بعضهم على بعض ، مقاطعة وقومية ، وتشتت آرائهم في انتخاب ملوكهم ، وقيام بعضهم من جراء ذلك على البعض الآخر ، وخراب البلاد بالحروب الاهلية وظلم اولي الامر فيهم ، وسوء ادارتهم ، وإسرافهم في سفك الدماء ، واضطهاد اليهود واستباحة اموالهم وأرواحهم .

ظهر اثر هذه العوامل في تحريض نفر منهم العرب على فتح البلاد ، وفي ضعفهم عن مقاتلة العرب وفي التحاق قسم منهم بالفاتحين بدلونهم على عورات البلاد ، وقعود القسم الآخر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن مقاومة تذكر .

العوامل الاقتصادية : جهل الاسبان استثمار ارضهم، والمجاعة التي وقعت قبل الفتح، ونستطيع ان نضيف الى ذلك الوباء الذي أصاب هذه الجزيرة في ذلك العهد فذهب بعدد عظيم من السكان قدروه بالنصف .

ثم رغبة العرب والبربر بما يجره الفتح من الكسب والغنائم .

العوامل الدينية : انشقاق الاسبان بعضهم على بعض دينًا .

ثم رغبة المسلمين في نشر دينهم وما نفثه هذا الدين في صدورهم من الايمان بالقضاء والقدر .

هذا كله ساعد العرب على الفتح دع ما كان في صدور القواد من حب الشهرة . وهل وقف موسى طارقاً عن الفتح ، وعزمه على التوغل في بلاد الأعاجم الى القسطنطينية الا دليل على ذلك ؟

« للبحث صلة »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاندلس

« عبرة وذكرى »

— ٢ —

(٢) — الحكم الأموي :

يقسم الحكم الأموي في الاندلس الى ثلاثة عهود : الولاية — الامارة — الخلافة .

الولاية الأموية : بدأت بالفتح سنة ٩٢ — ٩٣ وانتهت بامارة عبدالرحمن الداخل سنة ١٣٨ . واول وال عليها عبدالعزيز ، وليها لابيه موسى بن نصير على ماتقدم ذكره ، فثار به العسكر وقتلوه لسنتين من ولايته .

وتتابعت ولاة الأمويين عليها تارة من قبل الخليفة بدمشق ، وطوراً من قبل عامله على القيروان . وكان مقتل الوالي الاول فتح باب اللدد على مصراعيه ، فظلت هذه الولاية ومدتها ست واربعون سنة وبضعة ايام ، مضطرباً للنزاع والصدام ، قل ان استقام فيها لوال امر ، اوطال له حكم ، حتى نيف عدد الولاة في هذه الفترة من الزمن على بضعة وعشرين والياً [1] .

---

(١) وهذه اسماؤهم مع اختلاف يسير في ترتيبهم :

	من سنة	الى سنة	مدة ولايته
عبد العزيز بن موسى	٩٥	٩٧	سنتان
ايوب بن حبيب اللخمي	٩٧		ستة اشهر
الحر بن عبد الرحمن بن عثمان		١٠٠	سنتان وثمانية اشهر
السمح بن مالك الخولاني	١٠٠	١٠٢	
الغمر بن عبدالرحمن بن عبدالله ؟			من قبل اهلها
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي			
عنبسة بن سحيم	١٠٣	١٠٧	اربع سنين واربعة اشهر (من قبل يزيد ابن ابي مسلم عامل افريقية)
عذرة بن عبد الله الفهري			

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والسبب في ذلك مطامع الرؤساء، وتضارب الاهواء، ونزعة العرب الى العصبية الجاهلية الاولى. فقامت القيسية واليمنية تتنازعان السلطان — والقيسية واليمنية حزبان كان لهما في تاريخنا الى اجل غير بعيد شأن خطير.

كان عامل الاندلس منقطعاً به في اقصى ثغور المسلمين، بعيداً عن قلب الدولة ومادتها، فكان لا بد له من عصبة تؤيده في ولايته، وتحتفظ له بها، ولا تكون هذه العصبة مخلصة ثابتة، الا اذا كانت منه، وكان منها في عصبية واحدة. ففزع كل والٍ من ولاة هذا العهد الى عصبية، القيسي الى المضربة، واليماني الى اليمنية. والعصبية

	من سنة	الى سنة	مدة ولايته
يحيى بن سلمة الكلبي	١٠٧	١١٠	سنتان وستة اشهر (من قبل بشر بن صفوان الكلبي عامل افريقية)
عثمان بن ابي نسعة الخثعمي اللخمي	١١٠	١١٠	خمسة اشهر (من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب افريقية)
حذيفة بن الاخوص القيسي	١١٠	١١١	سنة (من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب افريقية)
الهيثم بن عبيد الكلابي	١١١	١١٣	سنتان (من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب افريقية)
محمد بن عبد الله الأشجعي	١١٣	١١٣	شهران
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	١١٣	١١٤	سنة وثمانية اشهر (من قبل عبيد الله ابن الحجاب صاحب افريقية)
عبد الملك بن قطن الفهري	١١٤	١١٦	سنتان (من قبل عبيدالله بن الحجاب صاحب افريقية)
عقبة بن الحجاج السلولي	١١٦	١٢١	خمس سنين (من قبل عبد الله بن الحجاب صاحب افريقية)
عبد الملك بن قطن الفهري	١٢١	١٢٤	(من قبل نفسه ثائراً)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تقتضي الرجل ان ينصر اخاه ظالماً او مظلوماً ، فخرج الوالي عن ان يكون حاكماً عاماً ، وأصبح زعيم عصبية ، يتصحب لذويه ، ويتحامل على اعدائهم . فكان من جراء ذلك ان انشقت الجماعة ، وهاجت الأحقاد ، وتقدمت الناس باحزابها ، لا على أقدارها .

ومن طبيعة السياسة الحزبية ان تشتد معها العداوة ، وتستحكم البغضاء ، وان يتربص كل فريق بصاحبه لوثبة يهتبلها منه ، فيُدال له عليه ، القيسي من اليمني ، واليمني من القيسي ، وكان الامر بينهما دواليك . وهُزل الامر حتى بلغ ان لا يكون للوالي حكم نافذ الا على قومه ، الوالي القيسي يطيعه القيسيون ، وينحاز عنه اليمانيون ، واليماني يخضع له اليمنيون ، و يعصيه القيسيون . وزاد هذا الخلاف التياث أمر أمية بالمشرق ، وتضعضع أحوالهم ، فشغلوا عن قاصية الثغور ، بكثرة الخوارج . فبقي اهل الاندلس فوضى : فتن دائمة ، وولاية متداولة ، وحال لا تستقر من القلق . واتفق جند الاندلس آخر الامر ان يجعلوا الولاية في القيسية واليمانية مداولة بين الجندين ، سنة لكل دولة . فقدم المضرية على انفسهم سنة ١٢٩ يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، فاستتم ولايته بقرطبة . ثم وافته اليمانية ليعاد ادالتهم ، واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم ، فبيتهم يوسف في قرى قرطبة بمالأة القيسية وسائر المضرية فاستلحموهم ، وتمت الغلبة للقيسية في معظم انحاء الجزيرة ، الى ان كان من امر عبد الرحمن ما نحن ذاكروه .

	من سنة	الى سنة	مدة ولايته
بلج بن بشر	١٢٤	١٢٥	سنة
ثعلبة بن سلامة الجذامي ؟			سنتان
ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي	١٢٥	١٢٩	اربع سنين وتسعة اشهر (من قبل حنظلة ابن صفوان صاحب افريقية)
ثوابة بن سلامة	١٢٩		سنة (من قبل عبد الرحمن بن حبيب صاحب افريقية)
عبد الرحمن بن كثير			(من قبل اهلها)
يوسف بن عبد الرحمن الفهري			(من قبل اهلها)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لهذا ، ولما انبعث عن ذلك من تبدل الولاة ، ظلت الولاية الأموية في الاندلس متناقلة ، غير متوارثة بين الآباء والابناء ، على ما وقع من ذلك في كثير من الولايات الأموية ، ولا سيما ما بعدت الشقة بينه وبين دار الخلافة كالاندلس .

شغلت هذه الفتن ولاة الأمو بين عن الفتح فلم تنهض بهم همة اليه ، الا ما كان من فتوح عبد العزيز بن موسى . ثم عقبة بن الحجاج السلولي الذي جاهد مظفراً حتى بلغ سكنى المسلمين في ايامه اربونة ، وصار رباطهم على نهر ردونة . والهيثم بن عبيد الكلابي غزا مقوشة فافتتحها .

والسمح بن مالك الخولاني نهض بالفتح الى جنوبي فرنسا . وعنبسة بن سحيم مات — وقيل قتل — وهو على حصار تولوثة (تولوز) . وعبد الرحمن بن عبدالله الغافقي فتح قرقشونة ، ونيم ، وغيرهما من جنوبي فرنسا ، واستولى على ارل ، وليون ، وبزانسون وانتهى الى تور . وعبد الملك بن قطن الفهري غزا البشنكش (البسكة) .

واكثر هؤلاء كان جهادهم في العدو اقرب بنتيجته الى الغزو منه الى الفتح . ومن بقي من هؤلاء الولاة لم يذكرهم غزو ولا فتح بل انشغلوا في انفسهم ، وفي عصبياتهم ، وفي المجاحشة عن كراسيهم او صحونهم على لغة السياسة اليوم — عن المضي فيما كان يريده موسى بن نصير او في بعضه .

ونحن وان لم نكن ممن يستهوينا تبسط ذلك الفتح الى أبعد مما وصل اليه ، بعد ان ضاع الفتح كله ثمرته ونواته .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر

وبعد ان انتهت تلك الأقطار التي كانت تمد تلك الجزيرة الى ما انتهت اليه . غير انا كنا نود لو هذبت حواشي ذلك الفتح بتطهير مخارمه ومفازعه ، فلعل ذلك كان يكون أحفظ للملك ، وأبقى عليه ، وهو ما نشير في موضعه اليه .

موقف الاسبان : و يتسائل الانسان بعد ان صورنا له هذا العهد ، عما كان من امر الاسبان أصحاب البلاد الاصليين ، وقد رأوا هؤلاء الذين سلبوهم ملكهم منشقة كلمتهم ، منقسمين أحزاباً يقاتل بعضهم بعضاً .

لقد كان فتح الاندلس امراً خطيراً كان له دوي كبير ، فأصبح اسم العرب ملء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأسماع والأبصار ، فانصدعت من جراء ذلك قلوب الاسبان ، وصغرت نفوسهم عن مقاومة العرب اول الامر ، فلم يشجعهم هذا الخلاف الذي نجم بين العرب على منازلتهم وعهدهم بالفتح وبأس العرب قريب . وأخرى هي ان العرب كانوا في حكمهم أعدل من الاسبان، فلم يكن ينال الاسبان الذين تفيأوا ظل الحكم الاسلامي وبقوا على نصرانيتهم ، شيء من الظلم الذي كان ينالهم ايام حكم امرائهم المسيحيين ، وللعدل روعة في النفوس وجلال، حمل اولئك الاسبان الجبليين الذين اعتصموا بتلك الولايات الجبلية ان يتربصوا الى حين .

فلما كثر بين العرب الخلاف واستحكم امره ، وكان قد مضى على الفتح ردح من الزمن ، اخذ الاسبان يتحيفون أطراف الملك العربي فتغلبوا على جزء من بلاد برشلونة ثم على برشلونة . وهذا الذي استخلصوه من العرب ان لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة الى الجزيرة ، فهو شيء كبير بنفسه . وأخرى انه فتح على العرب باباً من مطامع الأسبان يدخلون منه الى سائر انحاء الجزيرة ، فيعيدونها الى حيازتهم وهو ما قد كان .

الحضارة والعمران : شجع عبد العزيز بن موسى الهجرة الى الاندلس ، فوفد عليه الناس من الشام والعراق ومصر وغيرها ، فأقطع كل قبيلة ناحية . وازدحمت الاندلس بالعرب ، وكثر اهل الشام في قرطبة عند ابي الخطار حسام بن ضرار الكلبي الوالي اليمني ، حتى لم تحملهم دار الولاية ففرقهم في البلاد . أنزل اهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق ، وأنزل اهل حمص اشبيلية وسماها حمص ، واهل قنسرين واهل الأردن رية ومالقة وسماها الاردن ، واهل فلسطين شدونة وهي شريش وسماها فلسطين، وأنزل اهل مصر تدمير وسماها مصر .

وانتشرت اللغة العربية في الجزيرة بانتشار العرب انفسهم فيها اولاً ، وبتغلبها على لغة البلاد بقوة الفتح ثانياً ، وأنشأ عبد العزيز بن موسى ديواناً للتوفيق بين الشريعة الاسلامية السمحة، وقوانين اهل البلاد المفتوحة وعاداتهم ، رعاية للمصالح . ووضع السمح ابن مالك الخولاني بامر عمر بن عبد العزيز نظاماً للارض ، وبني قنطرة قرطبة الشهيرة .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الإمارة الأموية : مدتها مئة وسبع وسبعون سنة ، بدأت في العاشر من ذي الحجة من سنة ثماني وثلاثين بعد المئة (٧٥٦) بصقر قريش — عبد الرحمن الملقب بالداخل . وانتهت سنة خمس عشرة وثلاثمائة ، في عهد عبد الرحمن الناصر . فتعاقب على هذه الامارة بعد عبد الرحمن الداخل ، ابنه هشام الرضي — فابنه الحكم بن هشام — فابنه عبد الرحمن الاوسط بن الحكم — فابنه محمد بن عبد الرحمن — فابنه المقتدر بن محمد — فأخوه عبد الله بن محمد — ثم حفيده عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله وهو ثامن الأمراء الأمويين وبه ختمت الامارة . فهو لما بلغه ان يؤنسا الخادم قتل المقتدر بالله العباسي بالمشرق ، أعلن خلافته وتسمى بامير المؤمنين وضربت السكة باسمه .

عهد الامارة : هذا العهد هو خير العهود التي عرفتها الاندلس العربية فقد كان فاتحته عبدالرحمن الداخل ، وواسطته عبد لرحمن الاوسط ، وخاتمته عبدالرحمن الناصر : ثلاثة لاتدري أيهم أفضل من صاحبيه ، فكانوا رجال أمية بالغرب غير منازعين ولا مدافعين ، بل كانوا عرانين أمية عامة في المشرق والمغرب ، ومن رجالات الدهاء والحزم والسياسة في العرب .

عبد الرحمن الداخل : لما انقرضت الدولة الأموية بالشام ، وصار الامر الى بني العباس ، تتبعوا بقايا بني أمية ، ووضعوا فيهم السيف ، وفر من نجا منهم واستخفى . وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام اذ ذاك بذات الزيتون [1] ففر منها الى

(١) لم اجد فيما عندي من الكتب ما يعرف منه موضع ذات الزيتون . وفي معجم البلدان الزيتونة موضع كان ينزله هشام بن عبد الملك في بادية الشام فلما عمر الرصافة انتقل اليها فكانت منزله الى ان مات ، فهل الزيتونة هي ذات الزيتون ؟ ان عبد الرحمن مات ابوه وهو صغير فكفله جده هشام صاحب الزيتونة ، فلعل الموضعين واحد ، فيكون عبد الرحمن قد لجأ الى موضع له سابق عهد فيه والله أعلم . او ان ذات الزيتون في جبل حوران المعروف اليوم بجبل الدروز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلسطين ، وأقام هو ومولاه بدر يتجسس الاخبار ، و يتنقل من موضع الى موضع ، الى ان دخل بلاد الاندلس . واليكم حديث خروجه من الشام ، يقصه بنفسه على مثال المذكرات السياسية اليوم . قال :

« لما أعطينا الامان ثم نكث بنا بنهر ابي فطرس ، وأبيحت دماؤنا ، اتانا الخبر ، و كنت منتبذاً من الناس فرجعت الى منزلي آيساً ، ونظرت فيما يصلحني واهلي ، وخرجت خائفاً حتى صرت الى قرية على الفرات ذات شجر وغياض ، فبينا انا ذات يوم وولدي سليمان يلعب بين يدي ، وهو يومئذ ابن اربع سنوات ، فخرج عني ثم دخل من باب البيت فزعاً باكياً فتعلق بي ، فجعلت أدفعه وهو يتعلق بي ، فخرجت لانظر ، واذا بالخوف قد نزل بالقرية ، واذا الرايات السود منحطة عليها ، واخ لي حديث السن يقول : النجاء فهذه رايات المسوّدة . فأخذت دنانير معي ، ونجوت بنفسي واخي ، وأعلمت أخواتي بمتوجهي فأمرتهن ان يلحقنني مولاي بدراً .

وأحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوا لي اثراً ، فأتيت رجلاً من معارفي ، وأمرته فاشترى لي دواب وما يصلحني ، فدلّ عليّ عبدله العاملَ فأقبل في خيله يطلبني ، فخرجنا على أرجلنا هراباً والخيل تبصرنا ، فدخلنا في بساتين على الفرات فسبقنا الخيل الى الفرات فسبحنا ، فأما انا فنجوت والخيل ينادوننا بالامان ولا أرجع ، واما اخي فانه عجز عن السباحة في نصف الفرات فرجع اليهم بالامان واخذوه فقتلوه ، وانا انظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة . فاحتملت فيه ثكلاً ومضيت لوجهي فتواريت في غيضة أشبة ، حتى انقطع الطلب عني وخرجت فقصدت المغرب فبلغت افريقية » .

ثم ان اختــه ام الاصبغ الحقته بدرا مولاه ومعه نفقة له وجوهر ، فلما علم به عامل افريقية وهو يومئذ عبد الرحمن بن حبيب بن ابي عبيدة الفهري ، لج في طلبه ، واشتد عليه ، فهرب منه فأتى مكناسة — وهم قبيل من البربر — فلقي عندهم شدة يطول ذكرها ، ثم هرب من عنــدهم فأتى نفزاوة — وهم اخواله — وبدر معه . قيل وخاص عبد الرحمن الى المغرب يحاول فيه ملكاً فلما أعياه الامر ورأى شدة عامله عبد الرحمن بن حبيب ، وما كان من فتكه بالعاص وعبد المؤمن ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، رأى الاندلس أوسع لعمله ميداناً ، وأضمن منالاً ، لبعد الشقة مابينها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبين بغداد : دار الخلافة العباسية ، ولما بين اهلها من تنافس وشقاق . فرمى بهمته اليها .

وجه عبد الرحمن مولاه بدرا الى من في الاندلس من موالي المروانيين واتباعهم يدعوهم الى نفسه ، فاجتمع بهم ، وبثوا له في الاندلس دعوة ، ونشروا له ذكراً ، ووجهوا اليه مركباً مع وفد منهم وابلغوه طاعتهم له ، ورجعوا به الى الاندلس .

جاز صقر قريش — وهو اللقب الذي أطلقه عليه عدوه وابن عمه المنصور العباسي — البحر الى الاندلس . وما لبث ان سار الى قرطبة فاتخذها له عاصمة ، وجعل يقاتل من نازعه ، ويقضي على من خالفه ، وبعد قتال شديد ، وفتن متطاولة ، تمت له الغلبة على جميع من ناواه : من عرب وإسبان ، وظهر على جيشي المغرب والفرنجة اللذين قاتلاه نصرة للعباسيين ، او بحجة النصرة لهم .

وناجته نفسه حيناً من الزمن بالزحف على بغداد ، وانتزاع الخلافة من العباسيين ، كما انتزعوها من قومه ، وهمّ بذلك لولا ان شغله الاسبان ، والفرنجة ، والخارجون عليه ، يمدهم العباسيون بالمال والرجال .

والذي ساعد عبد الرحمن على امره ، وأعانه على ما كان فيه من خلق الرئاسة الموروثة ، وأسبابها المكتسبة عوامل اربعة :

الاول : ما أنفذته اليه اخته من المال .

الثاني : اتباع الأمويين ومواليهم ، الذين كان يؤلمهم ان يذهب الملك من أصحابهم بني أمية ، لهوى لهم معهم ، او لعصبية كانت لهم فيهم .

الثالث : اليمانية المغاضبة التي تغلبت عليها القيسية فسلبتها حقها من الولاية ووترتها وتراً مضاضا .

الرابع : استعانته بالموالي والبربر الناقمين لاستئثار العرب دونهم بالحكم والرئاسة .

جمع عبدالرحمن هذه القوى اليه ، بدهائه ومضاء عزمه ، حتى تم امره ، وانقادت اليه الاندلس قاصيها ودانيها ، على شرتها وعرامها . وليس من شيء يدلك على اناة الرجل وسعة حيلته ، وصبره على ما يكره ، مثل ان يدعو للعباسيين على منابر بلاد غلب ولاتهم عليها ، بعد حروب حمي وطيسها ، وبعد ان كان من أفاعيل العباسيين بقومه مايضيق عنه حلم الحليم . لم يقطع لبني العباس خطبة الا بعد ان تم له الاستقلال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولي عبدالرحمن الحكم ٣٢ سنة وكان فصيحاً لسناً ، عالماً شاعراً، حليماً حازماً، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه ، لا يخلد الى راحة ، ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل الامور الى غيره . شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحذر ، سخياً جواداً .

ومن شعره وقد نظر الى نخلة منفردة بالرصافة وقيل انه هو زارعها فقال :

تبدت لنا وسط الرُصافة نخلة ... تناءت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيّ وعن اهلي
نشأت بارض انت فيها غريبة ... فمثلك في الاقصاء والمتنأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسح و يستمري السماكين بالوبل

ومن قومه يتشوق الى معاهده بالشام :

ايها الراكب الميمم ارضي ... أقر من بعضي السلام لبعضي
ان جسمي كما علمت بارض ... وفؤادي ومالكيه بارض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمض
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وخلف عبد الرحمن ابنه هشام بعهد منه اليه ، وكان هشام ذا رأي وشجاعة عادلاً ممدوحاً يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز — و يبث عيونه يتسقطون له شكاوى الناس ومظالمهم فيُشكيهم ، غير ان اخويه سليمان وعبد الله شاقاه وخرجا عليه فقاتلهما حتى تغلب عليهما .

وشق عليه عصا الطاعة غيرهما ، منهم سعيد بن حسين الانصاري بطرطوشة ، ومطروح بن سليمان بن قيظان ببرشلونة ، وغيرهما في غيرهما ، فغلبهم كلهم . وجاء بعد هشام ابنه الحكم سنة ١٨٠ فكانت مدة ولايته ستاً وعشرين سنة تعاظمت فيه الفتن وقام عليه ايضاً عماه ، سليمان وعبد الله ، صاحبا الفتنة ايام ابيه ، واستنصر عبد الله شارلمان ملك الفرنجة فكان اليه سريعاً . وهو الذي كان لا بني يعمل على ايقاد النار في بلاد المسلمين . وانتهى الامر بان تغلب الحكم على معظم المصاعب التي واجهته ، اوقع باهل قرطبة ، و باهل طليطلة ، و باهل ماردة ، ورد غارات الفرنجة عن بلاده ، واعتدى عليهم باشد مما اعتدوا عليه ، وفتك بهم فتك عزيز مقتدر . فعاد الامن الى نصابه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأحاديثه بالفتك وسفك الدماء طويلة مستفيضة . ومما يدل على نجدته وبطشه ، انه لما كثرت عليه الفتن الداخلية ، واشتغل بعصيان اهل ماردة ، طمع الفرنج في ثغور المسلمين فقصدوها بالغارة والقتل والنهب والسبي . فأتاه الخبر بشدة وطأتهم . وقيل ان العباس الشاعر كان قد مرّ بوادي الحجارة فسمع امرأة تقول : وا غوثاه بك يا حكم ! لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا ، فأيمنا رأيتمنا . فسألها عن شأنها فقالت : كنت مقبلة من البادية في رفقة ، فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت . فنظم العباس قصيدة يعرّض فيها بذلك وأنشدها الحكم وأخبره بامر المرأة . فجهز الجيوش وخرج غازياً ، وقصد الناحية التي أقبلت منها تلك الخيل ، واتى بالأسرى فذبحهم بحضرة تلك المرأة وأهل بلدها . وقال للعباس قل لها : هل أغاثها الحكم ؟ فقالت لقد شفى الصدور ، ونكّى العدو ، وأغاث الملهوف . فأغاثه الله ، واعز نصره . فارتاح لقولها وبدا السرور في وجهه وأنشد :

ألم تر يا عباس اني أجبتها على البعد أقتاد الخميس المظفرا
فأدركت اوطاراً و بردت غُلة ونفست مكروباً واغنيت معسرا

وعلى الجملة فقد كان عهد الحكم عهد فتن متصلة، وفي ايامه كانت وقعة الربض فنسب اليها، ووقعة الحفرة . وكان على صرامته وبطشه مستهتراً يميل الى اللهو والصيد ، ويؤثر مجالس المغنين والشعراء ، على مجالس العلماء والفقهاء ، وهو اول من استكثر من المماليك بالاندلس وأظهر فخامة الملك وأسرف في تأييد هيبته . ارتبط الخيل على شاطيء النهر قبلي قصره ، التي فرس . وبلغت مماليكه خمسة آلاف، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم . وتشبه بالجبابرة ، وكان يباشر الامور بنفسه ، فأنكر عليه الفقهاء استهتاره واهاجوا العامة عليه، فشدد هو عليهم ، منعهم ان يداخلوه في اموره ، ونكبهم وأجلى جمهوراً منهم عن الجزيرة .

وكان الحكم مع هذا عادلاً جواداً، فصيحاً شاعراً، يقرب اهل الفضل، ويؤاسي اهل الحاجات ، ويشبّه بابي منصور في شدة الملك ، وتوطيد الدولة وقمع الاعداء .

ثم ولي الامر عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٠٦ فكانت مدته ثلاثين سنة . ولم تكن ولايته أقل اضطراباً وفتناً من ولاية ابيه الحكم . وكان هو لا يقل عنه بأساً وسطوة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صرف همه لاخماد الفتن داخل بلاده ، ورد غزوات الافرنج ، فكان منصوراً في اكثر الحروب التي كانت بينه وبين العرب ، وعماله ، والاسبان ، والافرنسيس ، والنرمنديين المعروفة غزواتهم عند العرب بغزوات المجوس . فتغلب على اعدائه كافة بعد جهد جاهد وقتال متطاول .

وكان عبدالرحمن أديباً شاعراً عالماً بالشريعة، وغيرها من علوم الفلاسفة . وكثرت عنده الأموال فصرفها في العمارة .

واخذت الامور بعد عبد الرحمن بالضعف ، فاضطرب الأمن ، ونجمت قرون الفتن في ثغور الاندلس ، واشتعلت الثورات في جوانبها ، حتى كادت تعمها فتلتهمها بجماتها، لولا ان قيض الله لهذه الجزيرة عبدالرحمن الناصر، ففقأ عين الثورة ، ونظم عقد الدولة ، وأعاد الجزيرة سيرتها الاولى ، ايام جديه : وسميّيه عبد الرحمن الاوسط ، وعبد الرحمن الداخل .

موقف الاسبان : قوّت هذه الفتن من عزائم الاسبان ، وزاد في الامر نصرة الافرنج لهم ، واستنصار بعض الامراء بهم. فكثر اعتداؤهم على الاندلس العربية ، وعملوا على التدخل في سياستها الداخلية ، ينصرون الأمير الأموي على اخيه الأموي، والعامل على اميره . وعلى الجملة فقد كانت نصرتهم للثورة على السلم ، وللفوضى على النظام .

فاسترجعوا من جراء ذلك قسماً كبيراً من ولاية قطالونية .

الحضارة والعمران : لم يصرف عبد الرحمن ما عاناه من الفتن والحروب ، وتأسيس الملك ، عن اعمال الحضارة والعمران . فلقد أنشأ المدارس ، ودور الكتب ، شحنها بالمؤلفات النفيسة . وبنى الحدائق الغناء ، منها الرصافة تشبهاً بجده هشام الذي بنى الرُصافة بالشام . وبنى مسجد قرطبة الاعظم « وكان معبداً للفيزقوط ملكه المسيحيون واخذ المسلمون نصفه . ولما شرع عبد الرحمن في بنائه ابتاع النصف الآخر[1] » فعاجله الموت عن إتمامه .

وأطلق الحرية للنصارى بدينهم ، وكتب لهم عهداً بذلك ..

(١) غرائب الغرب للاستاذ محمد كرد علي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واما هشام بن عبد الرحمن فقد أتم مسجد قرطبة الذي شرع فيه ابوه ، وبنى عدة مساجد غيره ، وجدّد قنطرة قرطبة التي كان عقدها السمح الخولاني .

وجند الحكم الأجناد ، وجمع الاسلحة ، واستكثر من الحشم والحواشي .

واما عبد الرحمن الأوسط فقد كان عصره عصراً زاهياً زاهراً بالحضارة والعلم ، وبكل فن من فنون الأدب . وأحدث أشياء لم يكن للبلاد سابق عهد بها . شاد القصور الفخمة والمتنزهات ، وجاء اليها بالماء العذب من الجبال ، وبنى المدارس والجوامع الكثيرة ، ومهد الطرق ، ونظم الشوارع ، وأقام بها الجسور ، وجمع اليه ذوي الشهرة من شعراء العرب وذوي الفضل منهم .

واليه وفد زرآب المغني معلم ابراهيم الموصلي فأورث صناعة الغناء بالاندلس .

ويعترف الاروبيون انه لم يكن في زمانه دار ملكٍ كدار ملكه أبهةً ومجداً [1] .

عارف النكدي

(١) دائرة المعارف العربية للبستاني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاندلس

— ٣ —

« عبرة وذكرى »

قسمنا الحكم الأموي الى ثلاثة أدوار : (١) الولاية (٢) الامارة (٣) الخلافة . وتكلمنا عن الدورين الاولين ، ونحن الآن متكلمون عن الدور الثالث وهو الخلافة . نبدأ بالاحداث السياسية ، ثم نثني بالاعمال العمرانية ، على ماأخذنا به نفسنا من قبل .

الحالة السياسية قبل عبدالرحمن الناصر : قلنا : ان الأمويين كان قد التاث امرهم بعد عبد الرحمن الاوسط ، فدب الضعف والدسائس الى جهاز الدولة ، واخذت الفتن والفوضى بخناقها ، وجعل اعداء الدولة الاموية يرقبون زوالها في الغرب ، بين حين وحين ، كما زالت من قبل في الشرق .

وبينا العرب وامرهم عليهم غُمَّة : يزدادون فُرقة فيزدادون ضعفاً ، والاسبان : يزدادون وحدةً فيزدادون قوةً ، اذ بعبد الرحمن بن محمد المقتول ابن عبدالله ، يبايع له بالامارة بعد جده عبد الله .

ومحمد هذا ، كان قتله اخوه المطرّف بن عبدالله بعد ان أبصر عبدالرحمن النور بيوم واحد . فنشأ عبدالرحمن في حجر جده عبد الله . وبويع له بالامارة وهو شاب في الثالثة والعشرين من عمره . وبالحضرة اعمامه واعمام ابيه ، فلم يختلفوا فيه .

وما ادري كيف اتفقوا على مثله فتى ، في زمان كان فيه الاب يقتل ابنه في اقل من الامارة . ولعل قومه رأوا ما كانت عليه دولتهم من القلق والاضطراب ، وشعروا بما كان يهددها من زوال ، وآنسوا بعبد الرحمن مضاء العزيمة والحزم ، فجمعهم اليه ولو الى حين ، خوفهم من سوء العقبى .

واذا كان الامر قد آتاه من هذه الوجهة ، فقد قامت في وجهه من وجهات أخرى مصاعب جمة ، لا نقل شيئاً عما كان لقيه جده عبد الرحمن الداخل . خوارجُ متوثبة عليه في الداخل ، والاعداء متربصة به الدوائر في الخارج ، الاسبان من الشمال ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والفاطميون من الجنوب . فكان عليه ان يضرب بسيف جده الداخل ، فيقاتل اهل البلاد من قومه ، ومن الاسبان ، وان يقاتل الفاطميين بدلاً من العباسيين الذين قاتلهم جده .

سياسته : رأى عبد الرحمن ان سياسة الضعف والتردد التي سار عليها الامراء المتأخرون من بني أمية ، قد أدت الى تفكك عرى الوحدة القومية ، فكان من وراء ذلك جماح العرب ، وطماح الاسبان ، فأخذ من امره بالحزم والشدة . غير انه حزم كانت تنقطع له نياط القلوب ، وشدة كانت تقشعر لهولها الابدان ، في كثير من الاحيان .

اظهاره الخلافة : ومن حزمه انه كان يهتبل الفرص فلا يتركها تمر مر السحاب . بلغه سنة ٣١٧ ان المقتدر بالله العباسي قد قتله مولاه مونس المظفر ، فبادر عبد الرحمن فأعلن الخلافة واتخذ لنفسه القابها : تسمى بامير المؤمنين ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وضربت السكة باسمه ، وخطب له على منابر البلاد ، وبعث الى الجهات بمنشور جاء فيه :

« اما بعد ، فانا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه . للذي فضلنا به ، وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، وسير على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه . وللذي اشاد في الآفاق من ذكرنا ، وعلو امرنا ، واعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعان من انحرافهم الينا ، واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولي الانعام بما أنعم به . واهل الفضل بما تفضل علينا فيه .

وقد رأينا ان تكون الدعوة لنا باميرالمؤمنين . وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك . اذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لايستحقه ، وعلمنا ان التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق اضعناه . واسم ثابت اسقطناه . فأمر الخطيب بموضعك ان يقول به . وأجر مخاطبتك لنا عليه ، ان شاء الله . والله المستعان . »

ولسنا نقف عند ما قاله مؤرخونا من ان قتل الخليفة العباسي هو الذي دعاه الى اعلان الخلافة ، فلقد كان ذلك سبباً من الاسباب لا السبب كله ، والا فقد قتل قبل المقتدر غير واحد من الخلفاء العباسيين ، فما تحرك أموي في الغرب بدعوة ، ولا طالب من الخلافة بحق . ذلك ان القوم كانوا يعدون الخلافة الصحيحة خلافة المشرق ، فكان كل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عز يز منهم يرمح بابصاره اليها ، وكانوا يرون في امارة الاندلس مدرجة الى العودة الى الملك القديم . وحسبنا على ذلك ان عبدالرحمن الداخل، خرج من الشام طريداً مشرداً ، لا ملك له فيه ، فأسس في الغرب الملك الذي رأينا غير انه ما برح يتشوق الى الشام ويعد نفسه في الاندلس غريباً .

وقد هم غير واحد من أمية بغزو المشرق والعودة اليه ، لولا ان شغلهم من الحروب والفتن ماذكرت بعضه ، فلما يئس عبد الرحمن الناصر من امر المشرق ، وقد توسطت بينه وبين خلافتها خلافة جديدة ، هي الخلافة الفاطمية بالمغرب ، رأى ان يكتفي بالاندلس ، يعلن فيها خلافته ، ويمشي بها رجوعاً الى ناحية المشرق على قدر ما يمتد معه الفتح .

اذا لم تستطع امراً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

ونحن بعد ، نجمل اعلان هذه الخلافة في أسباب خمسة :

١ — مكانة عبد الرحمن الناصر وطموحه

٢ — وقوف آماله عن غزو المشرق

٣ — قيام الخلافة الفاطمية وتوسطها بينه وبين الخلافة العباسية جرثومة الخلافة ، وانشغاله عن هذه بتلك .

٤ — ضعف الخلافة العباسية والتياث امرها .

٥ — قتل المقتدر العباسي

والسبب الخامس هو حجة ظاهرة انتحلها عبد الرحمن يتذرع بها ، وهو انه لم ينتزع الخلافة من صاحبها انتزاعاً ، وان كانت حقه ، ولكنه وجدها عاطلة تائهة فآواها وحلاها . أسلوب من أساليب الحيل السياسية من قبل ومن بعد .

حروب عبد الرحمن وقمعه للفتن : نهض عبدالرحمن الى الحرب يباشرها بنفسه ، فقاتل الثوار وهم كثر ، في غير موطن قتالاً متواصلاً ، وكان أشدهم عليه بنو حفصون ، واولهم عمر . قال ابن خلدون : وهو اول ثائر كان بالاندلس ، وهو الذي افتتح الخلاف بها ، وفارق الجماعة ايام محمد بن عبد الرحمن في سنة ٢٧٠ . خرج بجبل يشتر ( )

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من ناحية رَيْنَة ومالِقة ، وانضم اليه الكثير من جند الاندلس . وابتنى قلعته المعروفة هناك . واستولى على غرب الاندلس الى رُندة ، وعلى السواحل من الشيجة الى البيرة .

ومهما يكن من النظر في قول ابن خلدون ، من ان ابن حفصون هو اول ثائر ، فان الرجل كان قد مر عليه وهو ثائر عشرات من السنين ، قاتل فيها اربعة امراء من الأُمويين : محمداً والمنذر وعبدالله وعبدالرحمن ، وراسل ابن الاغلب بافريقية ، واظهر دعوة بني العباس ، وخالص ملك الجلالقة ، وأعلن دعوة عبيد الله المهدي . فكان ابن حفصون هذا رجلاً قد عشش الخلاف في رأسه ، وفرّخت الفتنة في قلبه ، فرماه الله بعبد الرحمن ، فما زال به حتى راجع طاعة بني أُميـة . ثم تغلب عبد الرحمن على أبنائه من بعده : سليمان وجعفر وحفص أبناء عمر بن حفصون . بعدما تكرر من نكثهم ورجوعهم . فانتهز امر بني حفصون بعد ثورات دامت خمساً واربعين سنة من ٢٧٠ — ٣١٥ .

ولم يشغله قتال الثوار ، عن الاسبان والفاطميين . فكانت ايامه كلها جهداً وعناءً بما لقي من عنت الخوارج ، وتمرد العصاة ، وطمع ملوك الأطراف من المسلمين ، وقتـال امراء النصارى في استوريا ، ونوارة ، وملكي [لاون] اوردنيو الثاني ، ورامير [ردمير] الثاني ، ومحاربة الفاطميين في إفريقية بعد ظفرهم بالادارسة ، وايغالُ جنوده الى السودان المصري . ومع هذا فقد خرج من معظم تلك الحروب ظافراً . فدوخ البلاد ، واخمد الفتن . وظفر بالمنتقضين عليه ، لم يراع منهم كبيراً ولا صغيراً ، قريباً كان او بعيـداً ، قتل اخاه القاضي بن محمد ، وابن عم ابيه محمد بن عبد الجبار ، عند ما آنس منهما نية الانتقاض عليه ، بل قتل ابنه عبد الله بن عبد الرحمن لمثل ذلك .

فاستقامت له الاندلس بعد سبع وعشرين سنة ، قضاها في قتال كان يشهد اكثره بنفسه ، الى ان كان عام الخندق ، في آخر الربع الاول من القرن الرابع ، يوم اوقع رامير ملك لاون واشتورش بالمسلمين فقتل منهم خمسين الفاً . فقعد عبد الرحمن بعد ذلك عن الغزو بنفسه ، وصار يردد الصوائف في كل عام . فبلغ من بلاد الفرنجة مالم يبلغه غيره . وراسله ملوك النصارى ، واوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية مهادنة له ، وتزلفاً الى مرضاته . وجلس للوفود مجلساً عاماً كان من الايام المشهود في تاريخ العرب ، ظهرت فيه الخلافة الاندلسية في مظهر من الابهة والعظمة والفخامة ، ليس بعده غاية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعرضت الجيوش ، وأنشدت الاشعار ، وألقيت الخطب ، فشهدت الوفود مشهداً ترك في نفسها اثراً كبيراً من قوة الدولة ونظامها .

واتاه الملوك المتاخمون لبلاد المسلمين في الاندلس . وممن الى ملك العدوة فاخذ سبتة ، ونقل الفرضة من ايدي اهلها ، واطاعه بنو ادريس امراء العدوة ، وملوك زناتة والبربر . وفتح طليطلة ، وقرمونة [1] ، واشبيلية ، وكثيراً من البلاد العاصية والبلاد المستقلة .

ومما يعد له في الدهاء ، ومكارم الاخلاق ، ويجمل بالامراء من اصحاب الوطنية الحق ان يقتدوا به ، ما كان منه نحو اردون (اردونيو) ملك لاون [2] وقد غزا بجيوشه ماردة ،

(١) قرمونية او قرمونة وهو الاكثر ، كورة بالاندلس يتصل عملها باعمال اشبيلية غربي قرطبة وبينهما اثنان وعشرون فرسخاً ، وشرقي اشبيلية وبينهما سبعة فراسخ . قديمة البنيان . عصت على عبدالرحمن بن محمد الأموي فنزل عليها بجنوده حتى افتتحها وخربها ثم عادت الى بعض ما كانت عليه .

قال ابن صارة الاندلسي في بعض ملوك العرب — واسمه الناصر — وكان قد فتح قرمونة :

اظلّ على قرمونة متحليـاً مع الصبح حتى قلت كانا على وعد
فارملها بالسيف ثم اعارها من النار اثواب الحداد على النقد
فياحسن ذاك السيف في راحة العلى ويا برد تلك النار في كبد المجد

(٢) أردنيو (Ordogno) اسم عدة ملوك من ملوك استور ياس ولاون ، اشهرهم اردنيو الثاني ملك من سنة ٩١٢—٩٢٣ . هجر اوثيادو وأقام بلاون واخذ طليرة وخربها وحارب عبدالرحمن الناصر سنة ٩١٦ ومضى لمساعدة نوارة وانكسر في واقعة فال جنكويرا سنة ٩٢٢ . وقال ابن خلدون : وفي اول المئة الرابعة للهجرة ملك على الجلالقة اردون ابن رذمير بن برمند بن قريوله بن اذفونش بن بيطر وخرج سنة ٣٠٢ الى الثغر الجوفي لاول ولاية الناصر وعاث في جهات ماردة واخذ حصن الحنش وبعث الناصر وزيره احمد ابن عبدة في العساكر الى بلاده فدوّخها ثم أغزاه ثانية ٣٠٥ فنكث ؟ وقتل ؟ ثم اغزى مدراً مولاه فدوّخ ورجع ثم غزا بنفسه بلاد جليقية ٣٠٨ واستنصر اردون بشانجة بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فنهبها وعاث فيها ، واخذ حصن الحنش وانتهى الخبر الى عبدالرحمن وهو مشغول بمحاربة الفاطميين بافريقية ، فلم يعقه ذلك ، ولا منعه ان ماردة كانت ثائرة عليه ، من ان يوجه الى نصرتها وزيره احمد ابن ابي عبيدة[1] فيهزم الاسبان ، ويغنم منهم غنائم كبيرة ويسبي فيهم سبياً كثيراً .

استألف الناصر جيرانه بعهود عقدها بينه وبينهم ، منهم اردن (اردونيو) الثاني ملك ليون و (شانجه) سانكو ملك نافار البشكنس .

كان عبد الرحمن من الملوك الذين لايجود الزمن بامثالهم الا قليلاً . ما نقول هذا عصبية قومية بل حقيقة تاريخية ، اعترف بها مؤرخو الغرب فأوسعوا لاسم عبد الرحمن مجالاً في كبيرات معلماتهم على قلة ما يفعلون ذلك برجالنا .

وعبد الرحمن الناصر كان عظيماً في كل شيء . في تدبيره وفي همته ، وفي حربه وفي بأسه ، وفي فتكه وفي عفوه ، وهو ما اشرنا اليه . وفي مناصرته للعلم ، ومعاضدته للعمران ، على ما نذكره في موضعه . واذا كان يعد عليه انه قتل ابن عم ابيه ، وقتل اخاه ، بل قتل ابنه ، فهذا امر لا يعنينا كثيراً لانه من الامور الخاصة ، وهو أعلق من حيث العواطف بنزعة الرحمة والشفقة ، منه بباب الحزم والسياسة ، بل قد يكون الحزم والسياسة في ما فعل ، على هول ما فعل وفظاعته .

غير ان ما نعده عليه ، ونؤاخذه به ، مما يرجع الى السياسة العامة ، و يتعلق بحياتنا القومية ، هو انه أضعف العصبية العربية ، بتقديمه الموالي على العرب ، وتأميرهم عليهم ، على نحو مافعل العباسيون في بغداد . فكان ذلك زائداً في تفكيك عرى الامة وتخاذلها ، وفي بعد الشقة بين ابنائها ، وقيام بعضهم على بعض ، وفي ضياع الرهبة من القلوب ، امر اذا حال سلطانه دون ظهوره في ايامه ، فقد كان ضرره بعد ذلك خطيراً .

غرسية ملك البسكنس (البسكة) وصاحب بمبلونة فهزمهم الناصر ووطيء بلادهم وخربها وفتح حصونهم وهدمها وردد الغزو بعد ذلك في بلد غرسية الى ان هلك اردون وولي بعده ابنه غرسية سنة ٣١٣ . (١) وفي دائرة المعارف الجزء الثالث ص ٤٠ وفي ما مر معنا من كلام ابن خلدون احمد بن عبده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفاته وولايته : توفي عبد الرحمن سنة ٣٥٠ (٩٦١) فكانت ولايته خمسين سنة قمرية .

الحكم : انتهى اليه الامر بعد ابيه عبد الرحمن الناصر ، فمهد الامور على السنة التي كان استنها ابوه ، من عقد المعاهدات مع جيرانه ملوك الاسبان . ذلك بعد ان حارب بعضهم ، ونكث البعض الآخر عهده الذي كان عقده مع ابيه . فظهر عليهم ، ودفع عاديتهم ، واوغل في بلادهم ، فاحتل بعضها . وشرط عليهم في المعاهدات التي عقدها معهم شروطاً كانت في مصلحة المسلمين ، فنزلوا على حكمه ، وقبلوا بها وأخلدوا الى السكينة . فأمن جانبهم .

وظهر النورمان او المجوس على لغة العرب في مياه اشبونة ، وعاث قرصانهم فساداً في الثغور ، فقاتلهم الاهلون الى ان وصل الاسطول الذي أرسله الحكم ففروا وأخلوا البلاد . ثم التفت الى المغرب الأقصى وكان صاحبه الحسن بن كنون — آخر ملوك الادارسة — قد نكث عهد قومه مع الناصر وحالف العبيديين ، فلما عاد جوهر قائد العبيديين من افريقية الى مصر ، عاد الحسن فخالف الحكم . ثم ثار بلكين بن زيري امير صنهاجة وزحف الى المغرب فدخل الحسن في طاعته ونبذ طاعة الأمويين مرة ثانية . فلما رجع بلكين الى افريقية ارسل الحكم الى الحسن جيشاً ضخماً عبر البحر من الجزيرة الخضراء الى سبتة ، فتغلب على الحسن وجيء به الى قرطبة . وسار الجيش الى فاس فامتلكها وأضافها الى بني أمية وقطع دعوة العلويين من تلك البلاد .

اخلاق الحكم : كان الحكم عالماً عارفاً بالتاريخ والشريعة ، حتى قيل عنه انه اعلم بني أمية . جلب له ابوه مشايخ العلماء وجلتهم في الشرق والغرب ، فتخرج بهم وكانت له تعليقات بخطه على كثير من كتبه وينسب اليه شعر رائق :

وفاته وخلافته : توفي الحكم ثاني صفر سنة ٣٦٦ فكانت خلافته ست عشرة سنة .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هشام المؤيد بالله : ولي بعد ابيه الحكم، وسنه عشرة اعوام وأشهر . فكان له من الخلافة اسمها ولقبها ، والامر كله لابي عامر محمد بن عبدالله بن ابي عامر، مؤسس الحجابة العامرية[1] بل دولة بني عامر كما كانوا يسمونها .

دولة بني عامر : مبدأ امر ابي عامر: انه ورد شاباً من طُرْطُش (تورطوسا) من الجزيرة الخضراء الى قرطبة . فطلب العلم والادب وسمع الحديث وتميز في ذلك . وكانت له همة يحدث بها نفسه بادراك معالي الامور ، ولم تزل حاله تعلو منذ ورد قرطبة ؛ الى ان تعلق بوكالة السيدة صبح[2] ام هشام المؤيد بن الحكم المستنصر والنظر في اموالها وضياعها ، فزاد امره في الترقي معها ، الى ان رغبت الى الخليفة في توليته القضاء فولاه ، فظهرت نجابته ، فترقى الى ولاية الزكاة والمواريث باشبيلية . فلما توفي الحكم ، وهشام صغير ، وخيف الاضطراب ، ضمن ابو عامر لصبح سكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها . وكان ابو عامر قوي النفس . وساعدته المقادير ، وأمدته المرأة بالاموال، فاستمال العساكر اليه ، وجرت أحوال علت قدمه فيها ، حتى صار صاحب التدبير ، والمتغلب على الامور . وحجب هشاماً ، وتلقب بالمنصور ، وامر بالدعاء باسمه على المنابر عقب اسم الخليفة، ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فحطهم عن منازلهم ، وقتل بعضهم ببعض . كل ذلك عن امر هشام وخطه وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ، ومزق جموعهم ، لا مستثنياً أموياً ولا ولداً ، بدأ بالمغيرة بن عبد الرحمن الناصر اخي الحكم فقتله ليلة البيعة لهشام ، بمالأة الحاجب جعفر ، وقاتل حماه غالباً مولى الحكم فقتله . وحمل جعفراً على نكبة الصقالبة الخصيان فنكبهم وشردهم ، وكانوا ثمانمائه او يزيدون . ثم قبض على جعفر نفسه فسجنه حتى مات ، وقتل ابنه عبدالله بن ابي عامر . ومضى يقتل من يخشى منهم من بني أمية وزعماء القبائل ، يُظهر انه يفعل ذلك حماية للمؤيد وشفقة عليه . حتى افنى من

(١) لما قسم بنو أمية خطط الوزارة بالاندلس جعلوا بين الوزراء والخليفة رسولاً يتردد بينهم في المهام سموه باسم الحاجب فارتفع عن الوزراء بمباشرته للسلطان في كل وقت وعلا مجلسه عن مجالسهم وكان يحجب السلطان عن الخاصة والعامة . فأشبهت خطته رئاسة الوزارة . (٢) وهي شعرانية نافارية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يصلح منهم للولاية والرآسة ، ثم شرد باقيهم عن البلاد ، وجردهم من الأموال ، فدانت له أقطار الاندلس كلها وأمنت به ، ولم يضطرب عليه شيء منها ايام حياته لعظم هيبته ، وفرط سياسته . واستوزر جماعة من اهل العلم والأدب . ولم يزل ابو عامر طول ايام مملكته مواصلاً لغزو الروم (الاسبان) مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء . و بلغ من حبه للغزو انه ربما خرج للمصلى يوم العيد فحدثت له نية في ذلك فلا يرجع الى مقره ، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره الى الجهاد فتتبعه عساكره وتلحق به ، اولاً فاولاً . فلا يصل الى اوائل بلاد الروم الا وقد لحقه كل من أراده من العساكر . غزا في ايام مملكته نيفاً وخمسين غزوة ، وفتح فتوحاً كثيراً ، ووصل الى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله ، وملأ الاندلس غنائم وسبياً من بنات الروم واولادهم ونسائهم .

وفي ايامه تغالى الناس بالاندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي والدور ، وذلك لرخص اثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزون بن به مما ذكرنا . ولولا ذلك لم يتزوج احد حرة .

قال المراكشي صاحب تاريخ الاندلس الذي نقلنا عنه معظم هذا الفصل : بلغني انه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع فلم تساو اكثر من عشر بن ديناراً عامريا .

كانت وفاة ابي عامر المنصور بالقصى ثغور المسلمين بموضع يعرف بمدينة سالم سنة ٣٩٣ بعد ان ملأ الاندلس بحديث انتصاراته وفتوحاته ، في الجنوب والشمال ، واغنى البلاد بالغنائم والاموال .

وابو عامر من اجل ملوك الاسلام عظمة وشأناً ، واكبرهم فتحاً واعظمهم سلطاناً ، استوثق له ملك المغرب وملك العدوتين ، وكان من امكر رجال السياسة واشدهم استبداداً على عدل في الرعية ، ونصفة في الاحكام . وقد طالت امارته نحواً من سبع وعشرين سنة . وخلفه ولده عبد الملك المظفر ابو مروان وكان مقتفياً اثر ابيه في الجهاد تحرش ملوك الاسبان بحدود المسلمين لاول ولايته ، فأوقع بهم بما مكّن من هيبته في قلوبهم ، فاخلدوا الى السلم . فكانت ايام المظفر على قصرها اعياداً في الخصب والامان . توفي سنة ٣٩٨ ، قيل سموه سمه اخوه عبد الرحمن فكانت ولايته سبع سنين . فخلفه اخوه عبد الرحمن ، لذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتلقب بالناصر لدين الله . ولم يقف به الامر عند الحجر على الخليفة ، والاستبداد بالسلطان ، كما فعل ابوه ثم اخوه ، بل حاول ان يستأثر بما بقي من رسوم الخلافة ومظاهرها . فاكره هشاماً ان يعهد اليه في الخلافة من بعده ، واستكتبه عهداً موثقاً بانه لما « لم يجد عنه مذهباً ، ولا الى غيره معدلا ، خرج اليه من تدبير الامور في حياته ، وفوض اليه الخلافة بعد وفاته ، طائعاً مختاراً مجتهداً ، وامضى امير المؤمنين هذا واجازه وانفذه ، ولم يشترط فيه ثُنْيا ولا خيارا ، واعطى على الوفاء به ، في سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه (صلى) وذمة نفسه ، ان لا يبدل ولا يغير ولا يحول ، واشهد على ذلك الله والملائكة وكفى بالله شهيداً . واشهد من اوقع اسمه في هذا وهو جائز الامر ماض في القول والفعل ، بمحضر من ولي عهده المأمون ابي المظفر بن المنصور وفقه الله تعالى وقيد له ماقلده ، والزمه نفسه مافي الذمة . وذلك في شهر ربيع الاول سنة ثماني وتسعين وثلاثمائة . » هذا ما كتبه صاحب الحق الموروث في الخلافة الاموية الاندلسية طائعاً ... مختاراً ... ومجتهداً ! ؟ وقد علمنا الحرب وما عقبها قيمة الطواعية والاختيار والاجتهاد في ما يكتبه المستضعفون والمعميون والمرتزقة من المضابط في مثل هذه الحوائق .

عظمت هذه البيعة على الناس عامة ، وانصار الامويين خاصة ، فكانت صفقة هائلة دفع فيها ولي العهد المأمون ، ابو المظفر بن المنصور ، حياته ثمناً لها .

* * *

الفوضى وخلفاء الفتنة : وكان امراً مقدوراً ان يتفق الناس على خلع هشام المؤيد ، بعدان رأوا من حاله مارأوا ، وبعد ان أصبح ضحكة الخلفاء . فبايعوا لمحمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وذلك في ١٨ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ (١٠٠٩) .

محمد بن هشام : قام محمد هذا بقرطبة فالتف حواليه الغاضبون من قريش عامة ، والأمويين خاصة . والعرب ولاسيما اليمانية . اولئك ، لما عظم عليهم من استبداد البربر بالامر منذ ايام الناصر الى آخر دولة العامريين ، واليمنية لما ركب اكتافهم من تحكم القيسية الذي طال عليهم امده .

تلقب محمد بالمهدي ، واخذ المؤيد فحبسه ، وبلغت انباء هذه الفتنة عبد الرحمن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العامري وكان بجليقية غازياً ، فقفل راجعاً الى قرطبة ، فلما قرب منها انفض عنه جمعه ، وخذله حتى البربر : انصار الدولة العامرية ، لسوء تدبيره ، ووثب به الثائرون فاحتزوا رأسه وحملوه الى المهدي . وكان عبد الرحمن قد قتل اباه هشاماً ، فانقرضت به دولة العامر بين سنة ٣٩٩ .

واشتد المهدي على البربر انتقاماً منهم ، وتقرباً الى العرب فأبعدهم عنه ، وامر بهم ان لا يركبوا ولا يحملوا سلاحاً ، وصادرهم وثارت بهم الدهماء فانتهبت دورهم .

فأئتمر البربر بينهم بخلع المهدي ومبايعة هشام بن سليمان الناصر ، فنشا الامر ، وتغلب عليهم المهدي فأزعجهم عن قرطبة وجاء بصاحبهم هشام بن سليمان ، واخيه ابي بكر ، وغيرهما من الزعماء ، فضرب اعناقهم .

واجتمع البربر بظاهر قرطبة ، ولحق بهم سليمان بن الحكم ابن اخي هشام المقتول ، فبايعه اصحاب عمه ، ولقبوه بالمستعين . ونهض به اصحابه الى طليطلة ، واستجاشوا بصاحب قشتالة فكان الى اجابتهم — على جاري العادة — سريعاً ، أمدهم بالجند والمال ، فسار سليمان الى قرطبة في جمع من البربر والنصارى ، فانكسر المهدي بعد معركة قتل فيها من رجاله خلق كثير ، فيهم الأئمة والعلماء ، وفر من قرطبة فدخلها سليمان وذلك من شوال سنة ٣٩٩ نفسها .

فكانت خلافة محمد المهدي بضعة اشهر .

سليمان بن الحكم : ولي الامر بعد ان تغلب على المهدي .

اما المهدي فلحق بطليطلة واستجاش في نوبته بسانجة اوشانجة (سانكه الثالث ملك نوارة وقسطيلة) فأنجده . فكر المهدي راجعاً الى قرطبة فكشف عنها المستعين . ففر هذا باصحابه ودخل المهدي قرطبة وجدد البيعة لنفسه . وذلك في منتصف شوال من السنة المذكورة .

فكانت خلافة المستعين هذه ، اياماً معدودة من شهر شوال .

محمد بن هشام : فلما عادت هذه الخلافة الحائرة الى محمد المهدي مرة ثانية ، خرج في جيشه وجيش الاسبانيول — الذي أمده به صاحب قشتيلية — لقتال المستعين ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان المستعين قد لحق بشاطبة ونفرق اصحابه في البلاد يعيثون فيها فساداً . وانكسر المهدي وعاد الى قرطبة مدحوراً ولحق به المستعين فحاصرها .

هشام بن الحكم : واشتد الامر على المهدي فرأى ان يعيد هشاماً المؤيد بل المقيد ، صاحب العامريين ، وسجين المهدي نفسه ، وهو الذي كان قبل الفتن . وقام المهدي في حجابته تسكيناً للثورة ، وذلك في ذي الحجة سنة ٣٩٩ . فلم يغل ذلك من غرب الفتنة ، ولا رفع الحصار عن قرطبة . فوثب الصقالبة على المهدي صاحب الحجابة بعد الخلافة فقتلوه دفعاً للفتن . وذلك يوم الاحد السابع من ذي الحجة سنة ٤٠٠ .

وسعى المؤيد في ان يصرف اليه البربر عن المستعين ، فلم يوفق . وتعهد المستعين لالفونس الخامس ان يسلمه مافتحه الحاجب المنصور من حصون قسطيلة ، ان هو أعانه على خلع المؤيد . وبلغ الخبر المؤيد فرأى ان يدخل مع المستعين ابن عم ابيه في المناقصة . فتعهد لالفونس ان ينزل له عن هذه الحصون فوراً ان هو لم ينجد المستعين . ورأى الفونس في مناقصة المؤيد صفقة اربح من صفقة المستعين ، هذا يسلمه الحصون تسليماً معلقاً ، وهو يحتاج الى قتال يقاتله معه ، والمؤيد يسلمها ناجزة من غير قتال ، فرغب في الثانية عن الاولى ، وأجاب المؤيد الى طلبه ، وتسلم الحصون .

وعاد المستعين يضيق على قرطبة الحصار . ثم اقتحم الزهراء ، وما زال بقرطبة يراوحها القتال ويغاديها ، ويناى احيانا عنها ثم يدانيها ، حتى استولى عليها بعد معارك طويلة ، وقتال اتصل الى منتصف شوال سنة ٤٠٣ . كان يكون مرة له ومرة عليه .

سليمان بن الحكم : عاد المستعين الى قرطبة في ذلك التاريخ ، فعادت الخلافة اليه . وكأن الخلافة كانت في الغرب في ذلك العهد ، موقوفة على من يملك قرطبة ، كما كانت في الشرق ، موقوفة في الغالب على من يملك الحرمين . وقبض سليمان على هشام المؤيد واخفاه ثم قتله سراً . واتى البربر اصحاب المستعين من الافاعيل في الزهراء وقرطبة ، ما قضى على شطر كبير من الحضارة والعمران ، وانزلوا انواع المعرة واصناف العذاب بالسكان ، الشيوخ والاطفال والرجال والنسوان . ونفرق البرابرة على الولايات الاندلسية يقتسمونها بينهم ، ويتحكمون فيها في الناس ، ووثب بعض العرب كل منهم في ناحية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استولى عليها ، فكان ذلك مبدأ ملوك الطوائف .

غير ان المستعين تعوّض عن تلك الولايات الضائعة ، والسلطان المضطرب ، لقباً جديداً هو الظافر . اضافه على اسمه الكريم الى لقبه القديم ، يقوّي به ملكه الضئيل . فاصبح سليمان بن الحكم : المستعين الظافر . المستعين ! وبمن ؟ بالفونس عدو وطنه ، وبالبرابرة اعداء قومه . والظافر ! وعلى من ؟ على ابناء عمومته لحمًا ، وعلى ذوي قرابته وقومه ، دماً عصبيةً .

ولم يطل امره حتى تغلب عليه ابن حمود العلوي وقتله بيده في المحرم من سنة ٤٠٧ هـ ١٠١٦ م .

(لها بقية) عارف النكدي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net